دراسة تحليلية لفكرة المدن الجديدة في الجزائر على ضوء بعض التجارب العالمية

تاريخ الإستلام 2008/01/27 – تاريخ القبول 2009/04/28

ملخص

يناقش البحث فكرة المدن الجديدة، أحد الموضوعات الهامة في التراث والفكر العمراني، التي أولتها الأهمية الكثير من بلدان العالم، بما في ذلك بعض البلدان العربية. ويسلط الضوء على تجربة المدن الجديدة، وعلى السياق العام الذي في إطاره تطرح فكرة المدن الجديدة في الجزائر، كأداة للتهيئة ونمط من أنماط التنظيم والتخطيط المجالي، من شأنه تحقيق توازن البنية العمرانية الوطنية، بالنظر إلى تضخم المدن الكبرى، لاسيما المجال المتروبولي لمدينة الجزائر العاصمة، بهدف استيعاب الزائد من السكان والأنشطة، وتوجيه النمو نحو الداخل، يشتمل الموضوع أيضاً على نقاط تحليل نقدية، بالتركيز على مدى توفر الشروط لتحقيق المدن الجديدة بالجزائر الغايات المرجوّة.

كلمات المفتاحية:

المدن الجديدة، الفكر العمراني، التنظيم العمراني، التخطيط المجالي، التوازن العمراني.

Résumé

Recherche traite de l'idée de villes nouvelles, l'un des sujets importants dans le patrimoine urbain et de la réflexion, l'importance accordée par de nombreux pays du monde, y compris certains pays arabes. Les points saillants de l'expérience des villes nouvelles, et l'ensemble du contexte dans lequel l'idée pose villes nouvelles en Algérie, un outil permettant de créer et de la structure d'organisation et de l'aménagement de l'espace, qui permettrait d'assurer un équilibre des infrastructures urbaines, compte tenu de l'inflation des les grandes villes, en particulier l'espace métropolitaine de la ville d'Alger, en vue d'absorber l'excès de la population, d'activités et d'orienter la croissance vers l'intérieur, le sujet inclut également les points d'analyse monétaire en mettant l'accent sur les conditions de villes nouvelles en Algérie objectives souhaités.

Mots clés :
Villes nouvelles, réflexion urbaine, organisation urbaine, planification spatial, équilibre urbaine.

Summary

Research discusses the idea of new towns, one of the important subjects in the urban heritage and thought, the importance attached by many countries of the world, including some Arab countries. The highlights the experience of the new towns, and the overall context in which the idea poses new towns in Algeria, a tool for creating and pattern of organization and space planning, would achieve a balance of national urban infrastructure, in view of the inflation of the major cities, especially metropolitan area of the city of Algiers, with a view absorb excess of the population, activities and directing growth around inside, the subject also includes points of monetary analysis, focusing on the conditions for new towns in Algeria desired goals.

Key words : New towns, urban thought, urban organization, Space planning, urban balance.

فوزي بودقة

قسم الجغرافيا والتهيئة القطرية–كلية علوم الأرض والجغرافيا والتهيئة القطرية

جامعة هواري بومدين للعلوم والتكنولوجيا الجزائر

© جامعة منتوري قسنطينة, الجزائر, 2009

إشكالية البحث

انتشرت تجربة المدن الجديدة في كثير من بلدان العالم خلال القرن العشرين، كأداة أساسية من أدوات التخطيط العمراني، تهدف إلى توازن الشبكات العمرانية الوطنية. ولكن في السنوات الأخيرة برزت الكثير من الانتقادات من طرف الباحثين المتخصصين في ميدان التهيئة والعمران، بأن المدن الجديدة بالنظر إلى محدودية النتائج، مقابل الاستثمارات الضخمة الموظفة، ليست بالضرورة الأداة الناجعة والوحيدة للتخطيط العمراني، إلى حد مطالبة البعض بعدم جدوى تطبيق فكرة المدن الجديدة، على ضوء ما آلت إليه تجربة المدن الجديدة في هذا البلد أو ذاك والآراء التي تصب معظمها في عدم اعتبار المدن الجديدة وسيلة أساسية من وسائل التخطيط، ما هو مصير الفكرة–التجربة إذن، مدى تحقيق المدن الجديدة في الجزائر للأهداف المرجوة من وراء تطبيقها وبخاصة تخفيف الضغوط عن المدن الكبرى؟ وما هي الشروط المتوفرة لنجاح الفكرة في حال الاستمرار في تبنيها من طرف السلطة العمومية؟

منهجية البحث

يعتمد البحث على أسلوب المقارنة للتجارب العالمية في موضوع المدن الجديدة مع تجربة بلداننا العربية، ومن بينها تجربة المدن الجديدة في الجزائر، بالرغم من حداثة عهدها بالنظر إلى المدة الزمنية القصيرة نسبياً، حيث طرحت ولأول مرة عام 1995 في وثيقة "الجزائر غداً"[1]* التي حددت التوجهات الكبرى لفكرة المدن الجديدة، ونمط توزيعها المجالي. كما نعتمد في إنجاز البحث على أسلوب التحليل للمعطيات الكمية والنظرية، وأسلوب التحليل النقدي، المرتكز على المقارنة واستقراء التجارب السابقة في الموضوع.

المقدمة

غنى تراث وأدبيات العمران، ومن بينها فكرة المدن الجديدة " new towns" يسمح للباحث مناقشة الفكرة–التجربة، التي شقت طريقها مع نهاية القرن 19، منذ أن اقترح ابنزر هوارد (Ebenezer HOWARD) إنشاء مدن الحدائق في بريطانيا وفقاً لما ورد في كتابه (Garden cities of tomorrow) عام 1898. كان لظاهرة التعمير والامتداد العمراني حول مدينة لندن، مبرراً كافياً للأخذ بفكرة المدن الجديدة، والمستلهمة من مقترح مدن الحدائق لهوارد، تكرست الفكرة مع مطلع القرن العشرين، وتوسعت بعد الحرب العالمية الثانية في بريطانيا ذاتها أولاً، ثم انتقلت إلى أوروبا وأمريكا وغيرها من بلدان العالم، خاصة وأن ظاهرة انفلات العمران أضحت ظاهرة عالمية، لم تفلت منها أي من البلدان، المتقدمة منها أو السائرة في طريق النمو، لا بل أخذت أبعاداً ضخمة بتلك الأخيرة، وبات الموقف السائد والأكثر إلحاحية، هو هل هذا العمران التراكمي أمر حتمي، وما هي سبل التحكم به إن لم يتم إيقافه؟

فكرة المدن الجديدة هل هي الفكرة الوحيدة في التنظيم العمراني والتخطيط المجالي؟

عند دراسة تطور الظاهرة العمرانية، وسبل مواجهة انفلات الظاهرة بالعديد من بلدان العالم، ليتبين أنّ نموذج المدن الجديدة هو أحد النماذج أو الأدوات وليس الوحيد، الذي يمكن بتطبيقه إيقاف نمو المدن الكبرى، والتحكم في نموها وتسييرها العمراني. فإلى جانب نموذج المدن الجديدة، هناك وسائل أخرى لمواجهة ظاهرة العمران والنمو السريع بالمدن الكبرى، من بين هذه الوسائل: مخططات التعمير التوجيهية الشاملة والمخططات التفصيلية المنبثقة عنها عملت بهذا النموذج الكثير من البلدان ومن أشهر التجارب المعتمدة في هذا الصدد، التجربة الفرنسية، وكذلك التجربة الجزائرية وغيرها، وهناك أداة أخرى تتمثل في التجهيزات الكبرى المهيكلة للمجال الحضري كالمناطق الصناعية أو الأحياء السكنية الكبرى والتوّطنات السكنية الجديدة (new settlements) ومن أشهر التجارب في هذا الميدان التجربة المصرية، وهي نموذج آخر لا يختلف كثيراً عن نموذج المدن الجديدة، وهي بمثابة مناطق أو بالأحرى أحياء التوسع الحضري الجديدة التي تبنتها الدولة الجزائرية، في سنوات السبعينات ومطلع الثمانينيات، في معظم المدن وبخاصة المدن الكبرى، ومن أشهر هذه الأحياء السكنية تلك التي أنجزت في بلديات باب الزوار، الرغاية، جسر قسنطينة وعين النعجة وغيرها من بلديات ضاحية الجزائر العاصمة، وكذلك في بلديات تابعة للمدن الأخرى بالبلاد. نموذج أقطاب التوازن في فرنسا من أجل التخفيف من الحجم الكبير الذي بلغته حاضرة باريس على حساب المدن الفرنسية الأخرى، إنشاء وتطوير المدن المتوسطة والصغيرة في بولونيا، بعد إعادة النظر في سياسة

المدن الجديدة. لقد طبقت فكرة المدن الجديدة بعد التجربة البريطانية، في العديد من المدن الكبرى بأوروبا وأميركا، وكذلك ببعض البلدان العربية. ولعل ما يلفت الانتباه في السنوات الأخيرة، أن بعض الباحثين –ومن بينهم كلود شالين (Chaline) الذي عمل خبيراً في مشروع المدن الجديدة البريطانية مدة 10 سنوات– باتوا غير متحمسين لفكرة المدن الجديدة التي أقيمت أو بصدد إقامتها وبخاصة تلك التي أسيئ اختيار موضعها، وبالتحديد التي أقيمت حول المدن الكبرى، بالنظر إلى الدور المهيمن لهذه الأخيرة، ناهيك عن التكاليف ومدة الإنجاز الطويلة، وبالنظر أيضاً إلى النتائج الهزيلة، مقابل التمويل الضخم والفترة الزمنية الطويلة التي استغرقتها إنشاء المدن الجديدة في كل من بريطانيا، فرنسا، بولونيا، مصر وغيرها من البلدان، ففي مصر مثلا لم تستقطب المدن الجديدة سوى 25 % منذ أن انطلقت في منتصف السبعينيات من عدد السكان المستهدف وهو 6 مليون نسمة (Chaline 1996)، وانقسم رأي الخبراء المصريين إلى رأيين أساسيين، الأول ويتألف من خبراء الاقتصاد الذين يرون عدم جدوى فكرة المدن الجديدة حول مدينة القاهرة، بالنظر إلى التكاليف الكبيرة وعنصر الوقت الطويل اللازم للإنجاز، ويساند خبراء الهندسة المعمارية ويراهنون على عنصر الزمن لنجاح تجربة المدن الجديدة، وإمكانية استقطابها للسكان، ويبدوا أن أصحاب هذا الرأي، لم يطلعوا على تجارب بلدان أخرى، لديها إمكانيات مالية أكبر وعدد سكان أقل مثل بولونيا وغيرها.

نماذج المدن الجديدة في العالم ومنطلقها الفكري

تشير تجارب المدن الجديدة في العالم إلى أن هناك دوافع وأهداف ومراحل لقيام هذه الأخيرة، تكمن أهم هذه الأهداف في الآتي:

الأهداف السياسية، أمثلة ذلك مدينة برازيليا التي تقع وسط البرازيل، والهدف هو تحقيق التوازن الإداري، حيث انتقلت السلطة المركزية عام 1960 إلى المدينة الجديدة برازيليا العاصمة الوطنية للبلاد. المدينة الجديدة إسلام أباد كرمز سياسي وقومي وعاصمة لباكستان، بعد انفصالها عن الهند عام 1947. المدينة الجديدة شانديجارا (Chandigarh) عاصمة إقليم البنجاب، تحت إشراف المهندس المعماري لوكوربوزيه (Le corbuzier).

أهداف التنمية الصناعية، مثال ذلك المدن الجديدة بالبلدان الاشتراكية سابقاً (الاتحاد السوفيتي وبولونيا) ومدينتي ينبع والجبيل بالسعودية التي انطلقت منذ عام 1975، الأولى تقع على البحر الأحمر والثانية على الخليج العربي بوظائف الصنعة الثقيلة والصناعات التكنولوجية والكهروحرارية، ومدينتي رأس الأنوف والبريجة بوظائف متعلقة بالصناعات البترولية، على الساحل الليبي بين مدينة طرابلس العاصمة ومدينة بنغازي.

أهداف تتعلق بالتنظيم العمراني حول المدن الكبرى والهيكلة المجالية للتراب الوطني، والأمثلة عديدة في هذا الميدان، خاصة التجربة الأصيلة في بريطانيا من خلال المدن الجديدة البريطانية، لاسيما إنشاء حزام من المدن الجديدة خارج الحزام الأخضر حول مدينة لندن العاصمة، وكذلك المدن الجديدة في إطار إقليم لندن الكبرى (Greater London)، ثم تجربة المدن الجديدة في أوروبا وخاصة الفرنسية في إطار تنظيم حاضرة باريس (Ile-de-France) وكذلك التجربة الأمريكية من خلال التجمعات الجديدة (new communities) وبالعالم العربي هناك تجربة المدن الجديدة بمصر لحل مشكلة اختناق القاهرة، تم البدء أولاً بمشروع المدن الجديدة حول القاهرة، ووضع برنامج لمجموعة من المستوطنات الجديدة، التي شكلت المحور الرئيسي للمخطط التوجيهي لتنظيم القاهرة الكبرى (Greater Cairo) عام 1970. وكذلك مشروع المدينة الجديدة "قاسيون" بدمشق، التي تم البدء بإنشائها عام 1987 ، ولكن تم توقف المشروع نظراً لعدم توفر التمويل الكافي، ومن بين المدن الجديدة بالعالم العربي هناك التجربة المغربية بإنشاء ثلاث مدن جديدة خلال العقود الخمسة الماضية: إعادة بناء مدينة أغادير بعد الزلزال في بداية الستينات، مدينة سلا الجديدة خلال التسعينات، وبناء حي الرياض الذي يعادل بناء مدينة صغيرة جنوب الرباط، شكلت هذه المدن امتدادات لمجالات حضرية موجودة، فيما تعتبر المدينة الجديدة "تمنصورت" التي يجري إنشاؤها شمال مدينة مراكش تجربة فريدة تنجز في إطار شراكة بين الدولة والقطاع الخاص (المركز الجهوي للإعلام بمراكش 2005) كونها تقام على أرض فارغة غير مرتبطة مباشرة بمركز حضري موجود، واعتبارا لهذه الخاصية فإن الدولة ترى في مدينة تمنصورت تجربة نموذجية بالنسبة لبناء المدن الجديدة، والذي يهدف إلى إطلاق بناء مدينة جديدة كل سنة في أفق 2020 بهدف تخفيف الضغط عن المدن الكبرى. وانطلاق فكرة المدن الجديدة بالجزائر منذ عام 1995، بعضها تم البدء بتهيئة المساحات الأرضية المخصصة مثل المدينة الجديدة بوغزول التابعة لولاية المدية

والواقعة بين هذه الأخيرة وولاية الجلفة بالهضاب العليا على بعد 170كم جنوب مدينة الجزائر العاصمة، حيث انطلقت أشغال التهيئة عام 1997، يأتي المشروع في إطار سياسة الدولة بقلب اتجاه النمو نحو المناطق الداخلية من البلاد، وتخفيف الازدحام عن العاصمة والمستهدف بلوغ عدد سكان المدينة الجديدة بوغزول 100000 نسمة، المدينة الجديدة سيدي عبدالله حول مدينة الجزائر العاصمة التي انطلقت بها الأشغال عام 1998، المدينة الجديدة "علي منجلي" بمدينة قسنطينة، والتي استقبلت منذ عام 2000 –رغم عدم اكتمال المدينة الجديدة آنذاك– جزءاً من سكان وسط مدينة قسنطينة، وبخاصة من الأحياء السكنية القديمة المعرضة لأخطار الانهيار. وكذلك المدينة الجديدة " إمدغاسن" بباتنة.

لا شك أن هذه التجارب وفق مفهوم المدن الجديدة، تحكمها فروقات واضحة حسب اختلاف الأهداف والمبادئ، فهي ليست متطابقة المعايير، ولا توجد بينها نقاط مشتركة كثيرة بالنظر إلى: نظامها العمراني من حيث الحجم، مدى احتشادها بالسكان، نمط تموضع الأنشطة، أنماط البناء السكني السائد أو الأكثر حضوراً، إن كان فردياً أم جماعياً أم مشتركاً. في الجانب الاجتماعي، من حيث طبقات وفئات السكان التي تجتذبهم، مدى الاندماج من عدمه في منطقة حضرية ومع المدينة الأم. من الناحية الإدارية والمالية، طبيعة ومدة الإنجاز والقدرة على التمويل ومصادره، والعلاقة مع المجموعات المحلية فيما يتعلق بالإدارة والتسيير العمراني.

يستطيع مَن يعود إلى تجارب المدن الجديدة في العالم، تصوّر الشروط الضرورية التي لابد منها لنجاح المدن الجديدة في تحقيق الأهداف المتوخاة منها، إن هذا النجاح يتطلب في الحقيقة توفير مجموعة من الشروط أهمها:

– تحديد حجم المدينة الجديدة، بمعنى عدد السكان المنوي استقطابهم في المراحل الأولى للإنشاء، والعدد النهائي المستهدف للاستقرار بالمدينة الجديدة، علاوة على حجم الأنشطة والمرافق، حتى لا تتحول المدينة الجديدة مع مرور الزمن إلى كتل حضرية، يصعب التحكم في توجيه نموها، وبالتالي تصدير مشاكل المدن الكبرى إلى المدن الجديدة.

– مدة زمنية طويلة، لا تقل عن 20 عاماً، أي أنها تدخل في إطار المشاريع الكبرى، وبالتالي هي بحاجة إلى مؤسسات إشراف وتسيير مستقرة، وقادرة على التكيف مع التحولات الاقتصادية والاجتماعية الجديدة والتعامل مع المؤشرات والمعطيات الديموغرافية والتقديرات المتعلقة بالتطور السكاني.

– بنية أساسية معتبرة تضمن سهولة الوصول من خلال طرق المواصلات، وبخاصة السكة الحديدية أو مترو الأنفاق (المدن الجديدة البريطانية والفرنسية وغيرها).

– التمويل وتحفيز المستثمرين على المساهمة في إنجاز المشاريع، وضمان استقلالية المدينة الجديدة واستمرارها، لقد بيّنت التجارب العديدة للمدن الجديدة، توقف الأعمال بسبب نقص التمويل والضائقة المالية، مثلاً تلاشت شانديغارا، تدريجياً بسبب ضعف التمويل واضطرت الدولة إلى بيع الأراضي قطعاً صغيرة، كما اضطرت الحكومة البولونية إلى إيقاف مشروع المدن الجديدة، الذي بدأت مرحلته الأولى في سنوات الخمسينات، بسبب نقص التمويل، والعودة إلى رأي العمرانيين البولونيين، بتشجيع قيام المدن المتوسطة والصغيرة بتكلفة وزمن أقل، المدينة الجديدة قاسيون بالقرب من مدينة دمشق والتي توقفت بها الأشغال بسبب عدم توفر التمويل الكافي.

– مؤسسة قوية بإدارة قوية وتسيير محكم، فإنشاء المدن الجديدة عملية تفوق طاقة المجموعات المحلية، وبالتالي تحتاج إلى تكفّل الدولة وإشرافها من البداية إلى النهاية، هكذا كانت التجربة البريطانية نفسها، والتجربة الفرنسية اعتُمدت كسياسة رسمية في عهد ديغول.

– كيف يمكن خلال مراحل الإنشاء اجتذاب السكان إلى المدن الجديدة، بتأمين الشغل والنقل والخدمات، وإعطاء الانطباع للسكان الجدد من الشعور بأنهم ليسوا في ورشة دائمة، كيف يمكن اجتذاب المؤسسات والأنشطة الاستثمارية العمومية والخاصة في مراحل الإنجاز الأولى، وبالإضافة ما سبق وبخاصة القدرة على تبني استراتيجية التنسيق وترقية الشراكة لتطوير هذا القطب الحضري "المدينة الجديدة" في إطار البعد الإقليمي، كما توصي به أرضية المدن الجديدة الأوروبية المنشاة حديثاً "European new towns platform".

تشريعات المدن الجديدة بالجزائر

منذ ما يقرب من عقد من الزمن طرحت فكرة المدن الجديدة بالجزائر، عندما شعرت السلطة العمومية بضخامة ظاهرة التعمير والامتداد العمراني بالمدن الكبرى بشمال البلاد،

لاسيما حول المتروبول العاصمي، وعدم قدرة مخططات التعمير على التحكم بهذه الظاهرة، ويتمحور المسعى حول فكرة إعادة تهيئة التراب الوطني بقلب اتجاه التعمير، وتوجيهه نحو المناطق الداخلية من الوطن، أما الوسيلة فهي "المدن الجديدة" كمحور أساسي في توازن البنية العمرانية الوطنية، ونمط من أنماط التنظيم المجالي بالاستناد إلى الأحكام التشريعية كقانون رقم 25-90 الصادر بتاريخ 18 نوفمبر عام 1990 المتعلق بالتوجيه العقاري، والقانون 29-90 الصادر بتاريخ 1 ديسمبر عام1990 المتعلق بالتهيئة العمرانية، والقانون رقم 03-87 الصادر بتاريخ 27 جانفي عام 1987، لاسيما المادة 46 منه التي تحدد كيفيات استعمال الأرض، والمادة 39 المعلقة بالمخطط الوطني للتهيئة العمرانية (SNAT) والمخطط الوطني للتهيئة على مستوى الإقليم (SRAT) واعتبار المدن الجديدة نموذج مشروع المنفعة الوطنية، وحسب المادة 13 من قانون 29-90، التي تنص على أهمية المنفعة الوطنية، بالمخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير (PDAU) ومخطط شغل الأراضي (POS) وبهذا المعنى فإن فكرة المدن الجديدة، هي أداة أساسية للتنظيم العمراني في المخطط الوطني للتهيئة العمرانية، الذي تم تحديثه مؤخراً (2006) خصصت الحكومة لبرنامج الاستثمار لعام 2007 مبلغاً وقدره 160.3 مليار دينار وزعت كالآتي: 31 مليار دينار للمدينة الجديدة سيدي عبدالله، 50.3 مليار دينار للمدينة الجديدة بوينان، 29 مليار دينار للمدينة الجديدة بوغزول بالهضاب العليا الوسطى فيما خصص 50 مليار دينار للمدينة الجديدة حاسي مسعود بالصحراء وبرمجت مدينة المنيعة بالعام 2008. أما الهدف المتوخى من إنشائها لتحقيق التوازن المجالي على المستوى الوطني، فجاء حسب المنطق التالي:

– المدن الجديدة التي تقام في الحزام الأول والثاني من أجل التحكم في إعادة التوازن للمنظومات الحضرية حول المدن الكبرى بشمال البلاد وخاصة مدينة الجزائر العاصمة.

– المدن الجديدة بالحزام الثالث والرابع لتدعيم منظومات حضرية بالمناطق الداخلية بالهضاب العليا وجنوب البلاد في إطار سياسة إعادة التوازن للمنظومة العمرانية الوطنية، وقلب اتجاه التنمية والحركة نحو جنوب البلاد.

وعلى ضوء تجارب المدن الجديدة في العالم ومنطلقاتها الفكرية، وشروط تحقيق الأهداف المتوخاة من إنشائها، نناقش التجربة في ضوء إستراتيجية التهيئة والتعمير الوطنية، لاسيما مدن الجيل الأول (première génération) من المدن الجديدة بالحزام الأول (première couronne) أي المدن الجديدة الأربع حول مدينة الجزائر العاصمة (أنظر الخريطة).

أي دور للمدن الجديدة بالمجال المتروبولي للعاصمة؟

يأتي مشروع المدن الجديدة بالمجال المتروبولي للعاصمة، في إطار إستراتيجية الدولة، التي أدرجت في الخطة الوطنية للتهيئة القطرية، والخطة الجهوية للتهيئة القطرية، بإقامة مدن جديدة

تشكل أقطاباً حضرية حول المدن الكبرى الأربع بشمال البلاد، الجزائر، وهران، قسنطينة وعنابة بهدف تخفيف الضغوطات على هذه المدن، وإقامة مدن جديدة بالهضاب العليا وجنوب البلاد بهدف تنمية هذه المناطق، تقوم سياسة الإنجاز وفق مبدأين أساسيين هما:

* قيام الدولة بتحضير الإطار العام لاستقبال المدينة الجديدة، أي إنجاز دراسات الإستراتيجية العامة، والقيام بأعمال التهيئة الكبرى، كإنجاز البنية الأساسية والتجهيزات المهيكلة.

* مبدأ مشاركة القطاع الخاص في ترقية برامج السكن والأنشطة وتوفير فرص الشغل.

أعطيت الأولوية لإنشاء مدن الجيل الأول من الحزام الأول، التي تقع بالمجال المتروبولي للعاصمة، بهدف التحكم في نمو مدينة الجزائر ومواجهة العمران العشوائي من خلال إقامة المدن الجديدة الأربعة وهي: سيدي عبدالله غرب مدينة الجزائر العاصمة، العفرون بالجزء الغربي من ولاية البليدة، بوينان بالجزء الشرقي من ولاية البليدة، الناصرية بالجزء الشرقي من ولاية بومرداس. العناصر الأساسية من البطاقة التقنية للمدن الجديدة الأربعة من حيث المساحة والبعد عن مدينة الجزائر العاصمة، ووظيفة كل مدينة والعدد المستهدف من السكان، هذه المعطيات يتناولها الجدول التالي:

المدن الجديدة بالمجال المتروبولي للعاصمة

المدينة الجديدة	المساحة بالهكتار	البعد عن العاصمة كم	الوظيفة	عدد السكان المستهدف بالآلاف
سيدي عبدالله (الجزائر)	1800	30	قطب تكنولوجي	200-150
العفرون (البليدة)	1600	55	صناعة تحويلية	150-100
بوينان (البليدة)	350	50	أماكن راحة ورياضة	150
الناصرية (بومرداس)	1000	80	صناعة	150-100

Source: ANAT, villes nouvelles de l'aire métropolitaine Algéroise, Études d'impacts, 1995

ANEP, charte de L'Agglomération nouvelle de Sidi Abdellah, 1998

بشئ من التفصيل للمعطيات الواردة بالجدول أعلاه، نتطرق إلى مشروع المدن الجديدة بالمجال المتروبولي، حيث تقع المدينة الجديدة سيدي عبدالله على بعد 30كم بالجزء الجنوبي الغربي من ولاية الجزائر، وتقع كل من العفرون وبوينان بولاية البليدة الأولى على بعد حوالي 20كم غرب مركز البليدة، والثانية على بعد 20كم أيضاً شرق البليدة، أما المدينة الجديدة الرابعة الناصرية فتقع في أقصى الجزء الشرقي من ولاية بومرداس على بعد 35كم عن مركز الأخيرة، ونظراً لقرب المدينة الجديدة سيدي عبدالله من مدينة الجزائر العاصمة، والهدف من إنجازها باستقطاب جزء من الأنشطة والسكان، لهذا أعطيت أسبقية البدء في الدراسات التي أسندت إلى المركز الوطني للأبحاث والتعمير (CNERU) عام 1995، ومن ثم الأشغال،بعد تهيئة الأراضي منذ عام 1997، من أهم الأهداف المتوخاة من إنشائها:

1- فك الاختناق عن العاصمة.

2- تنظيم التعمير خارج مناطق التوسع السياحي (ZET) حول الشواطئ والشريط الساحلي الممتد بين بلدية عين البنيان، مروراً ببلدية اسطاوالي، وصزلاً إلى بلديتي زرالدة ودواودة.

3- إدماج المستثمرين في المدينة الجديدة، لتجنيب المنطقة السياحية من البناءات الفوضوية.

4- حماية بيئة الساحل والأراضي الفلاحية الخصبة باختيار الأنشطة المناسبة لمثل هذه المواضع، حيث يصل الاستهلاك السنوي لهذه الأراضي إلى 120 هكتار تنتمي المساحة التي خصصت ويجري تهيئتها لاستقبال المدينة الجديدة من الناحية الطبيعية إلى

تلال الساحل، وهي أراضٍ زراعية من الدرجة الثالثة والرابع.

ورشة إنشاء المجمع العلمي أعلى التلة بالمدينة الجديدة سيدي عبدالله غرب العاصمة وبأسفل الصورة جزء من حديقة التسلية. تصوير فوزي بودقة 2005

الوظيفة الأساسية للمشروع تتمثل في إنجاز قطب علمي تكنولوجي حول العاصمة، على غرار بعض المدن الكبرى الأخرى في العالم، وحسب الهيئة المشرفة على إدارة وتسيير المدينة الجديدة سيدي عبدالله، فقد بلغت تكاليف ما تم إنجازه حتى الآن (1000 وحدة سكنية من مجموع 20-30 ألف وحدة مبرمجة، حديقة تسلية، إقامة جامعية، طرق تربط أحياء المدينة، مركز الشرطة، ورشات بناء في طور الإنجاز) 5 مليار دينار جزائري بالإضافة إلى 2.5 مليون دولار أمريكي، ما يعادل 20 مليار دينار جزائري أي ما مجموعه 25 مليار دينار جزائري حتى نهاية عام 2003.

المدينة الجديدة بالعفرون، حسب الدراسة التي كلّف بها مكتب الدراسات (BEREB) تبلغ مساحتها 1600 هكتار، ويتربع مركز بلدية العفرون على مساحة 608 هكتار ما يمكنها من التوسعات اللاحقة، تستفيد من البنية التحتية الموجودة والمتمثلة في الطريق الوطني رقم 4 الذي يربط بين البليدة ووهران، ويضيف الطريق المغاربي السريع إليها أهمية إضافية، علاوة على السكة الحديدية. وبما أن موضع المدينة الجديدة في وسط أراضٍ فلاحية، لاسيما سهل المتيجة الغربي، فإن وظيفة المدينة تتمثل في إقامة الصناعات التحويلية ذات الصلة بالمنتوجات الفلاحية، ويصل العدد المستهدف من السكان إلى 150000 نسمة عند اكتمال إنشاء المدينة آفاق 2020.

حي بن نور بسيدي عبدالله استكمل إنجازه وبأسفل الصورة مهجع لمواد البناء تصوير ف. بودقة 2005

مسطح مائي وحديقة التسلية بسيدي عبدالله، تصوير ف. بودقة 2005

خصص للمدينة الجديدة بوينان، مساحة 350 هكتار، تقع بالجزء الشرقي من ولاية البليدة، بالقرب من شبكة مهمة من الطرق لاسيما الطريق الوطني رقم 29، الذي يتصل بالطريق السريع شرق–غرب، ما يسهل الاتصال بين البليدة وبومرداس، الوظائف والأنشطة المزمع إنشاؤها بالمدينة الجديدة، وظائف رياضية، سياحية، وأماكن للراحة والتسلية، تستوعب المدينة 150000 نسمة، وإنجاز 20000 مسكن، وتوفير 50000 وظيفة. لا يزال المشروع في مراحل الدراسة النهائية من طرف (BEREB) وحسب مديرية التخطيط والتهيئة العمرانية بولاية البليدة، فإن تقديرات كلفة الإنجاز ستصل إلى ما يقرب من 150 مليار دينار.

أما المدينة الجديدة الناصرية، فهي تقع في الجزء الشرقي من ولاية بومرداس، بأطراف المجال المتروبولي ضعيف التنمية الاقتصادية والعمرانية، تقع على بعد حوالي 80كم من العاصمة، على الطريق الوطني رقم 12 الرابط بين مدينة الجزائر العاصمة ومدينة تيزي وزو، يمر بالقرب منها خط السكة الحديد شرق–غرب، كما أن قربها من ميناء دلس يضفي عليها أهمية إستراتيجية ضمن السياق الإقليمي. برمج للمدينة الجديدة أن تؤدي وظائف الصناعة التحويلية، وتستوعب عدد من السكان يصل إلى 100000 نسمة، وهي أيضاً لم تنطلق الأشغال بها بعد.

يشوب مشروع المدن الجديدة نوع من الغموض، حينما يجري الحديث عن تهيئة وتنظيم التراب الوطني، بإنشاء أقطاب حضرية تتمثل في المدن الجديدة، حيث لم تحدد وظائف هذه الأخيرة بالأحزمة الأربع المقترحة، إذا ما استثنيت مدن الجيل الأول من الحزام الأول، أي المدن الجديدة بالمجال المتروبولي للعاصمة، ومدينة بوغزول الواقعة بين الجلفة والمدية بالهضاب العليا. إنّ تبني مشروع المدن الجديدة كخيار وحيد، لمواجهة النمو العمراني العشوائي وغير المنظم لاسيما بالحواضر الكبرى، يعتريه نوع من استبعاد خيارات أخرى، سواء ما جرب منها دون متابعة أو ما لم يجرب، فهل استكملت تنمية المدن الكبرى في إطارها الإقليمي، هل توبعت التنمية الجهوية عبر التجهيزات الكبرى المهيكلة بالمناطق الداخلية من البلاد، لتشكل عامل تثبيت لسكانها، تجنب المدن الكبرى استقطاب موجات هجرة جديدة نحوها، هل تم تبني إنشاء أقطاب التوازن الحضري، هل تم تنظيم الشبكات العمرانية وضمان توازنها، من خلال تشجيع وتطوير المدن الوسيطة لاسيما المدن المتوسطة والصغيرة، كأدوات للتنظيم العمراني وتحقيق التوازن بين البنيات الحضرية الكبرى والبنيات الحضرية السفلى، أمام هذه الأدوات العديدة للتنظيم العمراني، من غير المنطقي إن نظرياً أو عملياً، تبنّي خيار واحد دون غيره من الخيارات، واعتبار المدن الجديدة الخيار الأوحد بامتياز.

أية شروط متوفرة لنجاح تجربة المدن الجديدة ؟

من أهم خصائص العمران بالمجال المتروبولي للعاصمة، الاستهلاك الواسع للأراضي الفلاحية،

الانتشار الكبير للكتل الحضرية والريفية الصغيرة، غياب أقطاب حضرية تنظّم وتستوعب موجات الهجرة نحو العاصمة، عدم وجود شبكة من المدن الوسيطة حول العاصمة، إلى جانب المدينة الثانية من حيث الحجم بالمجال المتروبولي، كما أشرنا في أحد نقاط التحليل السابقة. ومن الناحية الوظيفية، يتميز المجال المتروبولي للعاصمة بمستويين غير متجانسين من النمو والتجهيز:

المستوى الأول وهو الأكثر نمواً وتجهيزاً ويتمثل بالجزء الأوسط من المجال المتروبولي، أين تسود الوظائف الصناعية والنمو العمراني السريع، والامتداد غير المراقب على أراضي سهل المتيجة الخصبة، التي تؤمن سلة غذاء السكان بالمنطقة المتروبولية، وبات التواصل والالتحام العمراني بين العاصمة والبليدة يشق طريقه بخطىً متسارعة.

المستوى الثاني وهو الأقل سكاناً والأقل تجهيزاً، ويتمثل في الأطراف الغربية من ولاية تيبازا، والأطراف الشرقية من ولاية بومرداس. وعلى ضوء هذه الخصائص التي تميز المجال المتروبولي، فإن اختيار مواضع المدن الجديدة الأربع، يبدو أنه غير مناسب نظراً لقرب المدينة الجديدة سيدي عبد الله من العاصمة، وقرب مشروعي المدينتين الجديدتين بالعفرون وبوينان من البليدة وكذلك من العاصمة، وعلى أساس عامل المسافة والقرب من المدن الكبيرة، فهي أشبه بضواحي التوسع، أو المدن أو التوطنات التابعة في أحسن الأحوال، إذا استثنينا المدينة الجديدة الناصرية التي تقع في الأطراف الشرقية لولاية بومرداس (أنظر خريطة المدن الجديدة بالمجال المتروبولي).

لقد أدرجت عملية إنشاء المدن الجديدة ضمن مشاريع المنفعة العمومية، التي تنص عليها أدوات التهيئة والتعمير في بداية طرح الفكرة، ثم من خلال المراسيم التنفيذية المتعلقة بالمدن الجديدة مؤخراً، ولكن من هي الجهة التحكيمية التي تحدد مشاريع المنفعة العمومية.

بالنظر إلى الوظائف المتخصصة للمدن الجديدة، ما الذي يضمن طبيعة ونمط السكان الذين ستجتذبهم، وإذا اختيرت المدينة الجديدة سيدي عبدالله القريبة من العاصمة، بهدف تخفيف الضغط على المدينة الأم واجتذاب جزء من فائضها السكاني، ماالذي يمنع أن تستقطب السكان من المدن الداخلية بإقليم الوسط ومن مناطق أخرى، وبالتالي تشجيع موجات الهجرة من جديد. علاوة على أن عامل المسافة أي القرب من العاصمة، هل سيسمح باستقلالية المدينة الجديدة وضمان دورها الجاذب والمستقطب لسكان العاصمة دون غيرهم، وتحقيق التنمية المستدامة للمدينة الجديدة؟ باعتبار أن أحد شروط نجاح المدينة الجديدة، هو قدرتها على استقطاب السكان والأنشطة والنمو المستقل، أما من حيث عدد السكان المستهدف والذي يتراوح بين 150-200 ألف نسمة، ألا يعتبر مثل هذا الحجم هو بمثابة حجم مدينة متوسطة، وهنا هل من المعقول وفق المنطق العمراني، أن مدينة متوسطة بحوالي 200 ألف نسمة، وعلى مسافة 30كم من المدينة الأم، أن تساهم في تحقيق توازن البنية العمرانية للعاصمة، أم سيزيد من حجم العاصمة وإضافة مشاكل جديدة تعلق بضعف السيطرة والتحكم والتسيير، في الوقت الذي يجري الحديث عن التخفيف من وزن العاصمة في إطارها الإقليمي. كما أنّ مشروع المدن الجديدة لم يحدد، أية جداول زمنية أو مراحل إنجاز المشاريع المهيكلة، ولا مراحل التمويل ومصادره، وإذا كانت الدولة بمفردها ستتكفل بمراحل الإنجاز وكافة المنشآت، هل بإمكانها مواجهة هذا التحدي، الذي يتطلب أموال باهظة وزمن طويل يتجاوز 20 عاماً وبسبب صعوبات التمويل توقفت العديد من مشاريع المدن الجديدة في العالم (المدن الجديدة في بولونيا، شانديغارا بإقليم البنجاب، المدينة الجديدة قاسيون بالقرب من دمشق)، وهناك تجارب أخرى من المدن الجديدة لم تحقق الأهداف المتوخاة منها (المدن الجديدة حول باريس) ، كما أنّ الجدل الدائر حول مدى نجاعة مشروع المدن الجديدة في مصر يدعوا إلى التفكير والتأمل، ومن بين التساؤلات المطروحة على إدارة المدن الجديدة بمصر، مدى اتسام مشاريع المدن الجديدة، برؤية إستراتيجية مسبقة حول إعادة تشكيل الخريطة العمرانية والاقتصادية، وهل تمكنت من امتصاص جزء من الكثافة السكانية بالمدن الكبرى لاسيما القاهرة، كما كان متوقعاً خاصة وأنّ بعض التقديرات تشير أن المدن الجديدة لم تستقطب سوى ربع عدد السكان المستهدف استيعابهم، وغيرها من التساؤلات حول جدوى فكرة المدن الجديدة.

الخلاصة

الملاحظات التي تم التطرق إليها، من شأنها أن تشكل عوائق جدية لمشروع المدن الجديدة المقترحة، من أجل إعادة تهيئة وتنظيم التراب الوطني، وخاصة بالمدن والحواضر الكبرى التي تقع بالجزء الشمالي من البلاد وبخاصة القريبة من سهول الساحل الخصبة،كما يطرح بعض الغموض وعدم وضوح الرؤية والتصور. إن وضع برامج ومخططات لمشاريع المدن الجديدة، قد يكون من الناحية النظرية عمل سهل نسبياً، بالاستفادة من والاستئناس بالخبرة العالمية في ميدان إنشاء المدن الجديدة، ولكن التنفيذ يتطلب حلولاً ملائمة لمجموعة من المشاكل أو الإجراءات التي قد تصبح معوقات، من أبرزها: التصور الواضح والتحديد الدقيق لحجم المدينة الجديدة، وقدرتها على تحقيق الهدف المتوخى من وراء إنجازها،

واستمرار بقائها والتحكم في مسار نموها، حتى لا تتكرر تجربة مشكلات تسيير المدن الكبرى، وكذلك مسألة التمويل والقدرة على مواصلة التمويل، خلال مراحل الإنجاز التي تتطلب وقتاً طويلاً، ومدى توفير مؤسسات قوية وقادرة على إدارة المدينة الجديدة.

زاد تضخم مدينة الجزائر العاصمة وامتدادها نحو مجالها المتروبولي، من الوزن السكاني والاقتصادي للمتروبول العاصمي، مقارنة بباقي المتروبولات الجهوية الأخرى، مع العلم أن مساحة حاضرة العاصمة لا تشكل سوى 0,16% من مساحة التراب الوطني، تأوي حوالي 6 ملايين نسمة بحسب تقديرات عام 2004، أي ما يفرب من 20% من سكان البلاد وما يزيد عن 8 مليون نسمة في آفاق 2020. وهنا علينا تصور كم من المساحات الضرورية المطلوبة لسد الاحتياجات من السكن والأنشطة والمرافق، لأكثر من مليون نسمة إضافي في العشرية القادمة، حيث تشير التقديرات إلى تخصيص حوالي 10000 هكتار، وأمام نفاذ العقار المخصص للتعمير، فإن الأراضي التي ستستقبل الفائض السكاني، لن تكون سوى الأراضي الفلاحية بسهل المتيجة والساحل، بكل ما يحمله ذلك من مخاطر، تنعكس سلباً أكثر مما مضى على سلة الغذاء لسكان منطقة العاصمة وربما إقليم وسط البلاد، وبالتالي تعريض الأمن الغذائي الوطني لمزيد من التبعية للخارج، باعتبار أن ما تبقى من الأراضي الفلاحية، تشكل رئة الاقتصاد الفلاحي لمتروبول كبير بحجم المتروبول العاصمي. الأمر الذي يتطلب من السلطة العمومية التفكير في التخفيف من الوزن الديموغرافي والاقتصادي والوظيفي لمدينة الجزائر العاصمة في إطار عملية شاملة تستند بالأساس إلى التنمية العمرانية المستدامة، التي ترى حاجات سكان الحاضر دون تجاهل أو عدم اعتبار حاجات سكان الغد. وربما تمكّن عملية إعادة الانتشار (redéploiement) للأنشطة والسكان في إطار المجال المتروبولي لمدينة الجزائر العاصمة، أي الحزام الأول المكوّن من مدن (الجزائر، البليدة، بومرداس، تيبازا) كمرحلة أولى، وفي إطار الحزام الثاني أي إقليم الوسط في مرحلة ثانية. وتدعيم التنمية المحلية (développement locale) بالأماكن المهمشة ، وخاصة تلك الواقعة في أقصى الأطراف الشرقية وكذا الغربية من المجال المتروبولي، كخطوة ضرورية على طريق تنمية مدن صغيرة ومتوسطة، قادرة على تأمين حياتها اليومية ووظائفها الحضرية وتثبيت سكانها، وتلعب دور المدن الوسيطة (villes intermédiaires) بين العاصمة ومجالها المتروبولي، وفي إقليم الوسط بهدف إعادة التوازن لشبكة المدن باهم لإقليم من اقاليم البلاد ألا وهو إقليم الوسط (région nord centre) وتوفير الشروط الكفيلة بتنمية المناطق الداخلية من البلاد، لاسيما تأمين السكن والشغل لسكانها وقدرتها على جذب جزء من الفائض السكاني بمدينة الجزائر، بما يضمن التعمير والتخطيط المجالي المنسجم والمتوازن كخطوة أساسية على طريق إعادة التوازن للمنظومة العمرانية الوطنية.

المراجع العربية

1- الجريدة الرسمية رقم 45 بتاريخ 2006/07/09
2- وزارة تهيئة الإقليم، وثيقة الجزائر غداً، 1995
3- فوزي بودقة، تحليل الظواهر العمرانية بمدينة الجزائر ومجالها المتروبولي، أطروحة دكتوراه الدولة، جامعة العلوم والتكنولوجيا هواري بومدين، الجزائر، 2000
4- فوزي بودقة، الظاهرة الحضرية بالمدن العربية الكبرى، حالة مدينة الجزائر، الملتقى الثالث للجغرافيين العرب، الجمعية الجغرافية السعودية، جامعة الملك سعود، الرياض، 2003
5- فوزي بودقة، جوانب من تجربة المدن الجديدة بالعالم العربي، الملتقى الدولي مدينة جديدة لماذا؟ جامعة منتوري قسنطينة، 2001
6- فوزي بودقة، ضغوطات الامتداد العمراني في ظل الاتجاه نحو المتروبولية بمدينة الجزائر العاصمة، المؤتمر العربي الإقليمي حول الترابط بين الريف والحضر، وزارة الإسكان والمرافق

والمجتمعات العمرانية المصرية، الجامعة العربية وبرنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية (الموئل) ، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (آسكوا) و المعهد العربي لإنماء المدن، القاهرة، 2005

7- مؤتمر المدن الجديدة، مركز دراسات واستشارات الإدارة العامة، جامعة القاهرة، 2002

المراجع الأجنبية

1- ANAT, maîtrise et organisation de l'urbanisation dans l'aire métropolitaine d'Alger, 1997

2- Belhai-BenAzzouz Atika, la périphérie d'Alger, réceptacle de son étalement urbain, cas des communes de Bab-Ezzour, Bordj El-kiffan et de Dar El-Beida, thèse de magister, USTHB, Alger, 2005, pp.34-39

3- CHALINE, Claude, «les villes du monde arabe», Armand Colin, Paris, 1996

4- Charte de l'Agglomération nouvelle de Sidi Abdellah, ANEP, 1998

5- MERLIN Pierre, «les villes nouvelles» 2ème édition, PUF, Paris, 1972

6- New towns and sustainability, European new towns platform, 2005, www.newtown.net

7- RATCHFFE, John, «an introduction to town and country planning» 2nd edition, edited by Nigel cross, London, without date.

8- Villes nouvelles de l'aire métropolitaine Algéroise, Etudes d'impacts, ANAT, 1995